العربي الذاكرة

مجلة ربع سنوية - العدد الثاني - إبريل ٢٠١٩

الفهرس

تقديم	٣
سجلماسة... ١٣٠٠ عام على تأسيس أول حاضرة إسلامية بالمغرب الأقصى	٤
مدينة زبيد اليمنية وتحصيناتها	١٦
البيوت الدمشقية... كنوز معمارية فنية وأسرار تاريخية	٣٠
خان أسعد باشا العظم في مدينة دمشق	٥٠
زينة الرأس للمرأة التونسية... تراث ثقافي وحضاري	٦٤
سلامات من يافا وحيفا والناصرة والقدس الشريف	٨٨
السنع وأصوله... الأقوال الشعبية المتداولة في المناسبات الاجتماعية في دول الخليج العربي	٩٨
تاريخ غزة في نهاية العصر العثماني... قراءة من خلال شواهد القبور	١١٤
ملحمة السيرة الهلالية	١٢٨
إطلالة على البن اليمني	١٣٠
قراءة لوثيقة نادرة تقنن بيع الخيل في عهد الملك عبد العزيز	١٣٤
هرابات المياه النبطية في سيناء	١٤٢
ملف خاص: ما قبل التاريخ في الوطن العربي	
- آثار ما قبل التاريخ في العالم العربي والإرهاصات الأولى للحضارة	١٥٠
- الفن الصخري الموريتاني	١٦٢
- الملامح الثقافية لما قبل التاريخ في اليمن	١٧٤
- تاسيلي... تراث عربي مجهول	١٧٨

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

المشرف العام
مُصْطَفى الفِقي
مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس التحرير
خَالِد عَزَب
khaled.azab@bibalex.org

سكرتير التحرير
سُوزَان عَابِد
susan.abed@bibalex.org

المراجعة والتصحيح اللغوي
فاطِمَة نَبيه
مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط
الحَسَن عِصَام
خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، إبريل ٢٠١٩

طُبعت برعاية
OFID
THE OPEC FUND FOR INTERNATIONAL DEVELOPMENT
Uniting against Poverty

مدينة زبيد اليمنية وتحصيناتها

بقلم: الدكتور عبد الله عبد السلام الحداد

موقع زبيد ونشأتها

تقع مدينة زبيد على خط طول ٤٣ درجة شرقًا وخط عرض ٢٥ درجة شمالًا، وفي موقع متوسط من سهل تهامة الذي يحتل القسم الغربي من اليمن، ويمتد من باب المندب جنوبًا إلى حدود المملكة العربية السعودية شمالًا، وتبعد عن العاصمة صنعاء بنحو ٢٣٣ كم باتجاه الجنوب الغربي، وتبعد عن مدينة تعز بنحو ١٦١ كم باتجاه الشمال الغربي، وعن مدينة الحديدة ٩٥ كم باتجاه الجنوب الشرقي. وتحتل زبيد أيضًا موقعًا متوسطًا بين البحر الأحمر غربًا، وسلسلة الجبال شرقًا؛ حيث تبعد عن كلٍّ منهما مسافة ٢٥ كم؛ ولذلك يصفها ابن بطوطة بأنها مدينة برية لا شطية، ويذكرها أبو الفداء بأنها: «في مستوى من الأرض عن البحر أقل من يوم»، و«ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ١٠٠م»؛ كما تقع بين واديين زراعيين مهمين؛ هما وادي زبيد جنوب المدينة، ووادي رمع شمالها.

وكان موقع زبيد قبل إنشائها أرضًا زراعية كثيرة الأشجار تابعة لواديي زبيد ورمع، وفيها عدد من الآبار والعيون الجارية، يتناثر حولها عدد من القرى الصغيرة أهمها قرية الحصيب؛ وفيها أسس الصحابي أبو موسى الأشعري جامع الأشاعر؛ الذي يعد أول مسجد بُني في تهامة، وثالث المساجد في اليمن بعد جامع صنعاء، ومسجد معاذ بالجند.

وفي أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وتحديدًا في يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان من سنة ٢٠٤هـ الموافق ٢٣ يناير ٨٢٠م، تم تمصير قرية الحصيب وما حولها من القرى، وتحويلها إلى مدينة على يد الوالي العباسي محمد بن عبد الله بن زياد؛ فعرفت باسم مدينة زبيد نسبة إلى واديها، لتكون عاصمة لإمارته، ثم لدولته التي استمرت حتى سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م.

تخطيط زبيد

عندما ولي ابن زياد اليمن سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٩م، مصّر قرية الحصيب وجعل تخطيطها دائريًا، ومن هنا جاء وصفها عند كلٍّ من الخزرجي وابن الديبع بأنها: «مدورة الشكل عجيبة الموضع»، كما قام ابن المجاور برسمها بشكل دائري، في حين وصفها المقدسي بأنها: «بغداد اليمن». ومن عبارته هذه يمكن الاستدلال على حقيقة تخطيطها الدائري القريب من تخطيط بغداد من حيث الشكل؛ أما من حيث المساحة، فإن المصادر لم تحدد مساحتها عند الإنشاء، وأول معلومة وصلتنا عن مساحتها

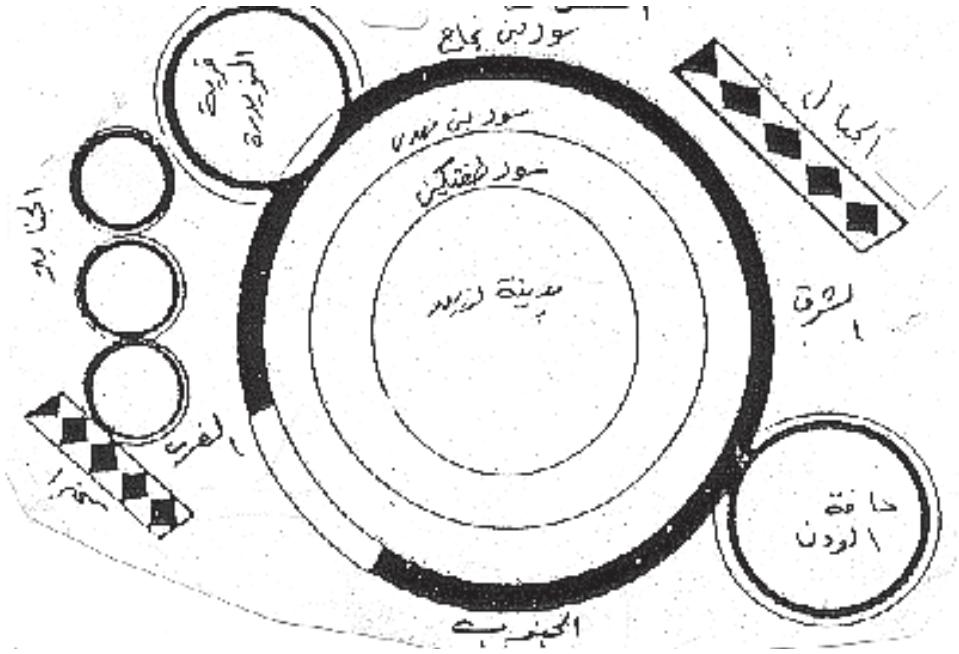

زبيد: تخطيط زبيد وأسوارها، (عن ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص٩٣).

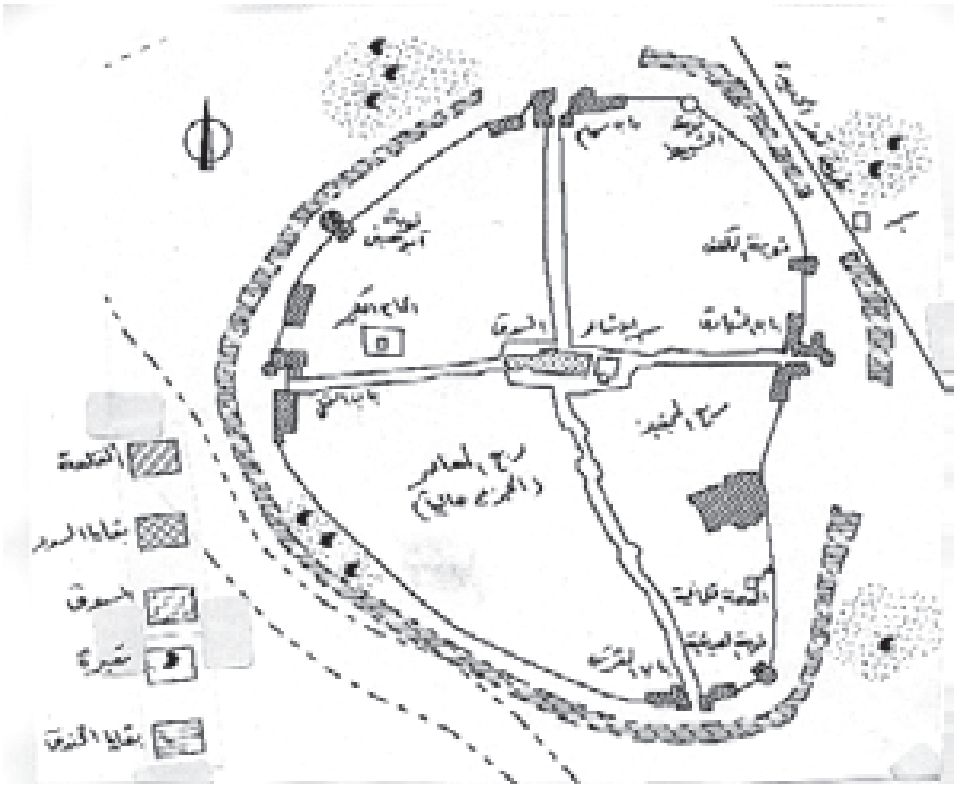

زبيد: تقسيم المدينة إلى أربعة أقسام.

ترجع إلى أواخر العصر الأيوبي في اليمن، إذ يذكر ابن المجاور أن مساحتها تبلغ ٩٤٥ معادًا[1]، في حين قيست بعد ذلك في العصر الرسولي، فكانت ٦٨٠ معادًا، وهي المساحة الصحيحة؛ لأنها نتجت عن قياس واختبار كما ذكر ابن الديبع.

أما عن تقسيم المدينة، فتتكون من أربعة أرباع، نتجت عن تقاطع الشارعين الرئيسيين اللذين يمتدان بين أبواب المدينة الأربعة؛ وهي: الربْع الأعلى، وربْع الجامع، وربْع المجنبذ، وربْع المعاصر؛ وقسم كل ربع منها إلى عدد من الحافات (حارات وأحياء)؛ ومنها: حافة السويقة، وحافة المصلى، وحافة الزيالع، وحافة الدموت، وحافة الهنود من ربع الجزع، وحافة باب النخل من ربع الجامع، وحافة السراج من الربع الأعلى، وحافة الخبازين وتقع شرق سوق المدرك... إلخ.

وإلى جانب الحافات ضمت المدينة سوقًا في وسطها بجوار جامع الأشاعر، وكان مسقوفًا بسقائف مصنوعة من الحصير، وتتفرع منه عدة أسواق؛ منها: سوق المرباع، وسوق الخان، وسوق المسوادة، وسوق البَـزِّ، وسوق البُرِّ، وسوق السَّلَب، وسوق المعاصر، وسوق المنجارة، وسوق الشباك، وسوق المِعْجَار، وسوق الخبازين، وسوق السمك، وسوق التمر والخضر، وسوق الحدادين، وسوق الجزارين... إلخ.

سور زبيد

من المرجح أن ابن زياد عندما مصَّر زبيد أحاطها بسور يحميها من هجمات الأعداء، خاصة أنها تقع وسط وديان منبسطة يسهل مهاجمتها واقتحامها؛ ونستدل على ذلك بما ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم: «كان عليها حصن من الطين بأربعة أبواب»، ويؤيد يحيى بن الحسين (المتوفى سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م) ذلك في كتابه غاية الأماني، عندما أشار قائلًا: «اختط ابن زياد مدينة زبيد، وأدار عليها سورًا».

وقد أصبحت زبيد منذ اتخاذ ابن زياد لها عاصمة لولايته ثم لدولته مهبطًا لكثير من الناس من مختلف الطوائف العلمية منها والمهنية؛ فأدى ذلك إلى زيادة عدد سكانها؛ مما اضطر معها وزير بني زياد الحسين بن سلامة إلى بناء سور جديد يحيط بالتجمعات السكانية الجديدة في أثناء فترة وزارته التي انتهت بوفاته سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م. وقد جُدد هذا السور في عهد وزير بني نجاح أبي منصور من الله الفاتكي سنة ٥١٧-٥٢٤هـ/ ١١٢٣-١١٣٠م، في سنة «بضع وعشرين وخمسمائة»، فكان بذلك أول من خطط زبيد بعد الحسين بن سلامة، وجدده عبد النبي بن علي بن مهدي، فيما بين شهري ربيع الأول وشوال سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م.

وعند استيلاء الجيش الأيوبي على زبيد سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، أباح قائده توران شاه بن أيوب المدينة لجنده ثلاثة أيام، تعرضت خلالها لعمليات النهب والسلب والتدمير، وخاصة أسوارها التي

(١) المعاد: وحدة قياس، يعادل فدانًا مصريًا، أو عشرة آلاف ذراع مربعة.

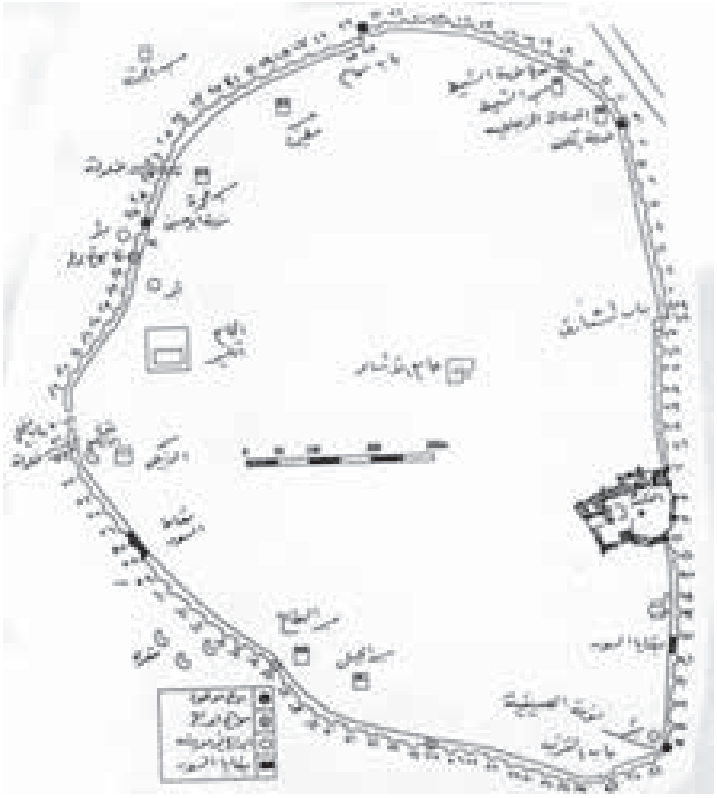

مخطط السور الباقي من مدينة زبيد.

ظلت متهدمة حتى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، عندما أمر السلطان الأيوبي طغتكين بن أيوب بتجديد السور القديم سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وإضافة سور آخر يحيط بالسور الأول، وركَّب عليه أربع بوابات، وأمر الجند بالسكن فيما بين السورين. وكان سور طغتكين آخر سور بُني للمدينة، مع قيام سلاطين بني رسول وبني طاهر ثم المماليك والعثمانيين بتجديده كلما تعرض للخراب.

محيط السور

ذكر المؤرخون وأولهم ابن المجاور أن محيط مدينة زبيد أواخر العصر الأيوبي كان ١٠٩٠٠ ذراع، لكن الخزرجي فند ما ذكره ابن المجاور بقوله: «وهذا غير صحيح، فإن مساحتها تكون على ما ذكر تسعمائة معاد وخمسة وأربعين معادًا ونحوًا من ثلث معاد»، وقد مسحت في عهد الملك المجاهد علي بن المؤيد داود الرسولي سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، فجاءت مساحتها ستمائة معاد وستة وثلاثين معادًا، ونصف معاد وثمن معاد، ومسحت مرة أخرى في عهد ابنه السلطان الأفضل عباس بن المجاهد سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م، على يد الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن السراج، والفقيه جمال الدين محمد بن أبي بكر الغراس، فجاءت مساحتها يومئذٍ ستمائة معاد وأربعة وعشرين معادًا ونصف معاد، من غير اختبار، وبالاختبار ستمائة وثمانين معادًا.

وللتأكد من صحة قياس كل من ابن المجاور والخزرجي، تم تتبع موقع السور من خلال البقايا، ومن خلال ما ذكره المؤرخون، ومن خلال سؤال كبار السن من أهل زبيد، الذين أدركوا أساسات السور قبل تهدمه، ومن خلال الخريطة التي وضعتها البعثة الكندية للآثار بزبيد؛ وعلى ضوء ذلك تم وضع علامات تدل على مكان السور على خريطة جوية للمدينة، ثم قياس محيط السور على الخريطة؛ فكان طوله ٧٦,٥سم، وبعد تحويل هذا الطول إلى قياس على الطبيعة من خلال مقياس رسم الخريطة تبين أن محيط السور ٧٦,٥سم × ٥٠م= ٣٨٢٥م. وهو قياس يكاد يطابق ما ذكره الخزرجي؛ إذ الفارق بينهما ٧٥,٦٩م فقط.

المخطط الافتراضي للسور وعدد أبراجه وبقاياه.

وصف موجز للسور وأبوابه

كان السور يحيط بالمدينة من جميع الجهات، تتخلله أربع بوابات، و١٠٩ أبراج، كما ذكر ابن المجاور بقوله: «عددت أبراج زبيد، فوجدتها مائة برج وتسعة أبراج».

يمتد السور من باب الشبارق؛ وهو الباب الشرقي للمدينة، ويعرف بهذا الاسم نسبة إلى قرية الشبارق الواقعة شرق زبيد، وربما كان يعرف باسم باب المجرى أيضًا؛ إذ يذكر ابن الديبع: «إن سعيدًا الأحول اصطف بجنوده لمواجهة جيش المكرم الصليحي من باب المجرى إلى القبلة». ويتكون باب الشبارق من كتلة بنائية طولها ٥٥م، تضم بوابة ذات برجين مائلين كُلٌّ نحو الآخر بحيث يخفيان وراءهما البوابة؛ فتظهر بشكل موروب؛ مما يضطر المهاجم للبوابة إلى الانعطاف يمينًا ثم شمالاً قبل أن يصل إلى فتحة الباب؛ ومنها إلى الدركاة المكونة من جزأين نصل من أولهما إلى داخل البرجين، أما الثاني فنصل منه إلى داخل المدينة، مع وجود حجرة مربعة تكتنفها من الجهة الجنوبية، يبدو أنها كانت مخصصة للموظف المسئول عن البوابة.

وبناءً على ذلك يمكن القول إن المدخل الموروب وجد لأول مرة في باب الشبارق وباب القلعة بمدينة زبيد، ومنها انتشر لباقي المدن اليمنية، ومنها بوابات مدينة صنعاء، وخاصة بابي ستران واليمن، وأبواب الهادي والمحاميت ونبهان من مدينة ثلا، وأبواب مدينة صعدة التي بنيت أسوارها على يد الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م. ويكتنف البوابة ثكنتان عسكريتان مستطيلتان، قُسمت كلٌّ منهما إلى بلاطتين بواسطة بائكة ذات ستة عقود في الثكنة الشمالية وثمانية في الثكنة الغربية، ولكل ثكنة منهما ثلاثة مداخل؛ وهذا التخطيط يشبه بعض ثكنات قلعة العقبة بالأردن.

بعد باب الشبارق يمتد السور باتجاه الشمال ثم الشمال الغربي على هيئة ربع دائرة حتى يتصل بالباب الشمالي للمدينة؛ المعروف باسم «باب سهام» بطول ٧٩٠م. وكان هذا الجزء من السور يحتوي على ٢٣ برجًا لم يبقَ منها في الواقع سوى برج واحد يعرف باسم «نوبة الكتف»، التي تتكون من برج نصف دائري متعدد الطوابق يتصل به من الجهة الغربية ثكنة للجند.

ويعد باب سهام أهم أبواب المدينة، لذلك يعد - كما تذكره المصادر- وجه المدينة وغرتها. ويذكره كثير من المصادر باسم باب سهام نسبة إلى وادي سهام الواقع شمال المدينة، في حين

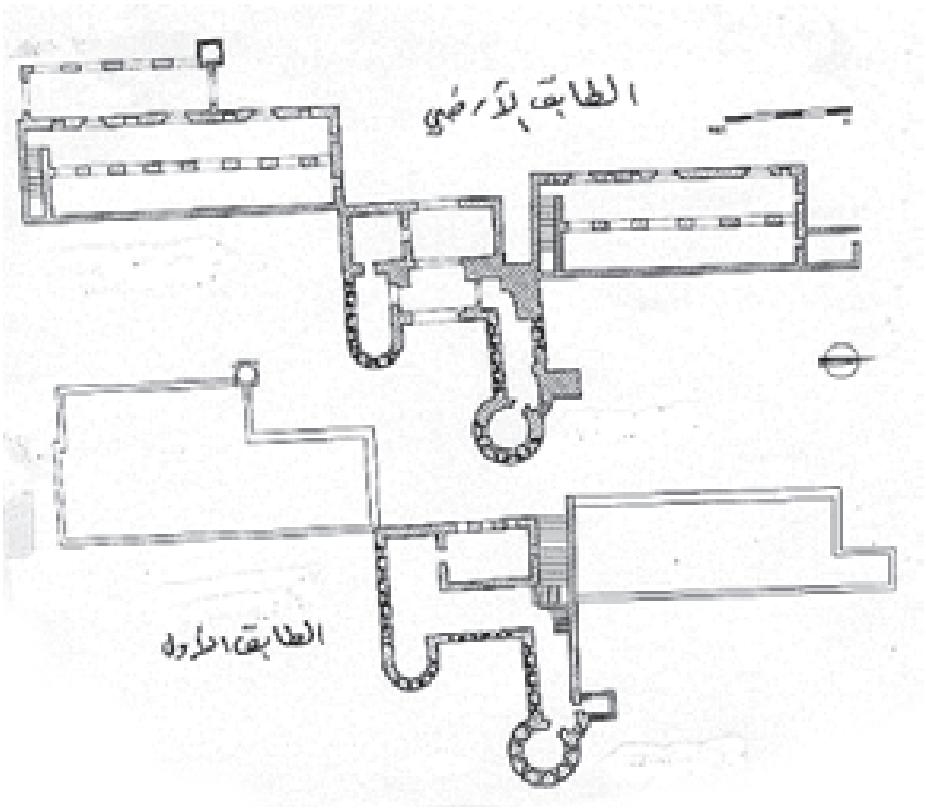

منظر عام، ومسقط أفقي لباب الشبارق.

تذكره بعض المصادر باسم «باب زبيد»،وذكره المقدسي في أحسن التقاسيم باسم باب هشام، ربما تصحيفًا للاسم «سهام».

وتخطيطه مكون من مساحة طولها ٦٥م، تضم بوابة وثكنتين عسكريتين؛ البوابة لم يتبقَّ منها سوى باب الدخول وجزء بسيط من البرج الغربي على هيئة ربع دائرة، في حين جدد الجزء الباقي من البرج على شكل مبنى مستطيل؛ أما البرج الشرقي الحالي؛ فمن المرجح أنه لا يمثل البرج الشرقي للباب لبعده عن الباب بمسافة قدرها ٢٥م.

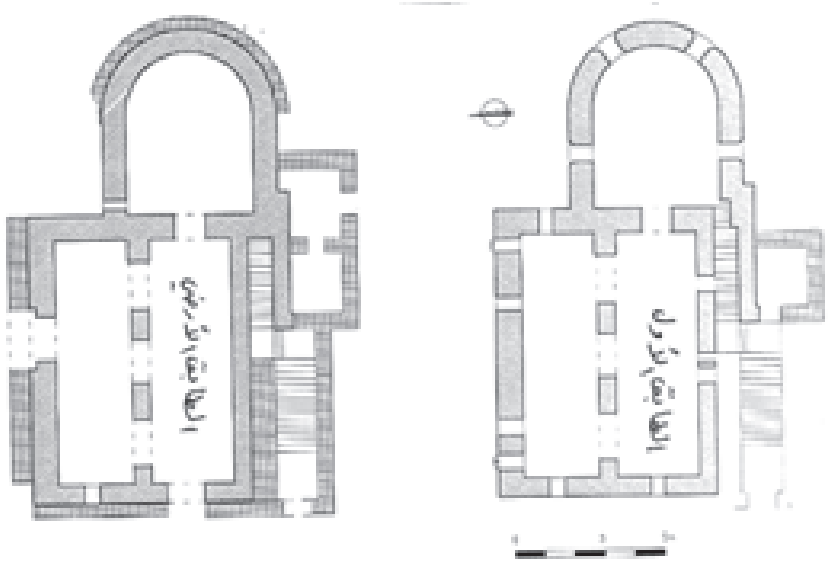

منظر عام، ومسقط أفقي لنوبة الكتف.

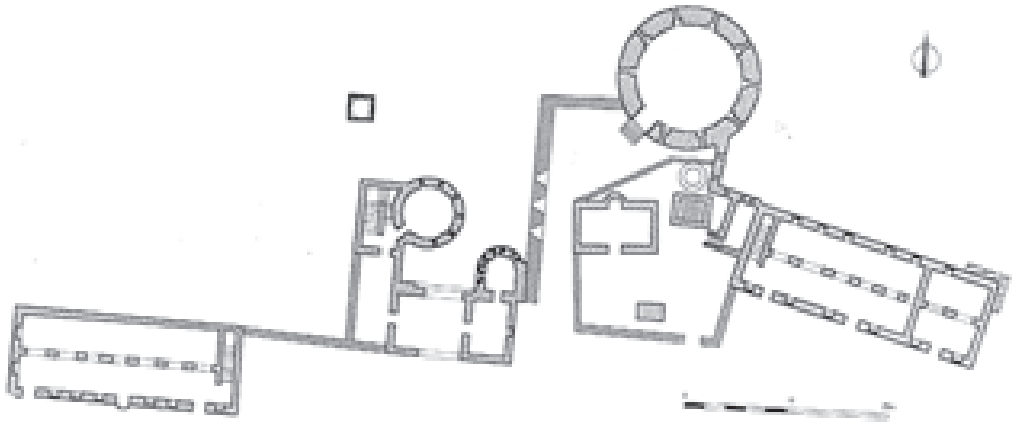

زبيد: منظر عام، ومسقط أفقي لباب سهام.

بعد باب سهام يمتد السور حتى باب النخل بطول ٨٣٥م، ومن المحتمل أنه كان يحتوي على ٢٤ برجًا لم يبقَ منها غير برج واحد هو برج «نوبة أبي حسين»؛ المكون من مبنى دائري الشكل، مغطى بسقف من الخشب، محمول على جدران البرج ودعامة مربعة قسمت البرج من الداخل إلى مساحتين نصف دائريتين؛ أما الطابق الأعلى، فكان مكشوفًا، وتتخلله ثلاثة مزاغل مستطيلة كبيرة الحجم، مشطوفة الحواف من الداخل والخارج. وبين كل مزغل وآخر مزغلان صغيران مزدوجان. وتخطيط النوبة بهذا الشكل يشبه تخطيط برج الصديقية.

أما باب النخل وهو الباب الغربي للمدينة، فكان يعرف باسم «باب غلافقة» نسبة إلى ميناء زبيد المعروف باسم «غلافقة» أو «غليفقة»، ثم تغير الاسم إلى باب النخل نسبة إلى مزارع النخل القريبة من زبيد من ناحية الغرب بدءًا من أوائل عصر الدولة الرسولية. وتخطيطه مكون من مساحة طولها ٦٣م، تضم بوابة ذات برج واحد، وثكنتين مشابهتين لثكنات بابي الشبارق وسهام، وثكنات برجي الزاويتين الجنوبيتين من قلعة زبيد.

بعد باب النخل يمتد السور حتى باب القرتب بطول ١١٥٠م، كان يتخلله ٣٣ برجًا تقريبًا، ولم يبقَ معروفًا منها سوى موقع برجين؛ أحدهما يعرف باسم برج «الغصينية» ويقع غرب المدرسة الغصينية مباشرة؛ والثاني إلى الجنوب منها.

ويمثل باب القرتب الباب الجنوبي للمدينة، وسمي بهذا الاسم لوقوعه باتجاه قرية القرتب من وادي زبيد. وتخطيطه مكون من مساحة طولها ٥٢م، تضم بوابة ذات دركاة يكتنفها من الجانبين دخلتان صغيرتان؛ الشرقية منهما أكثر اتساعًا. ويكتنف الباب ثكنتان عسكريتان مماثلتان من حيث الشكل لثكنات الأبواب السابقة، وتختلفان عنها من حيث الحجم، كما يختلف باب القرتب عن الأبواب الأخرى بخلوه من الأبراج، وبفتحته المباشرة.

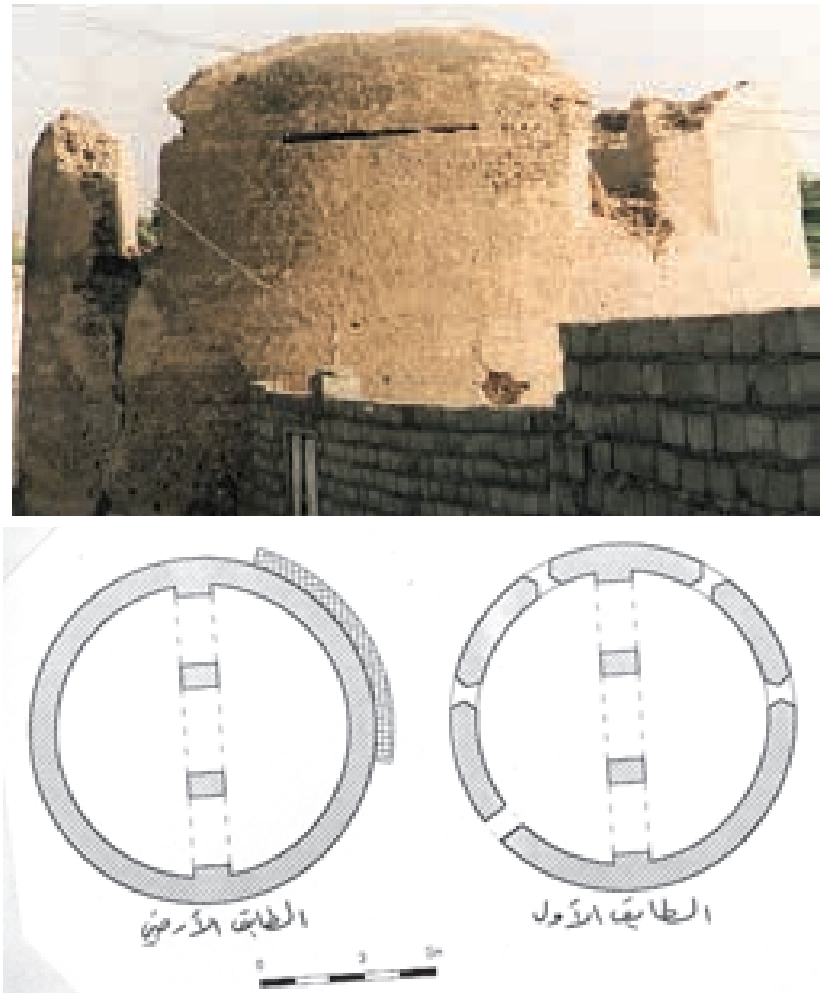

زبيد: منظر عام، ومسقط أفقي لنوبة أبي حسين.

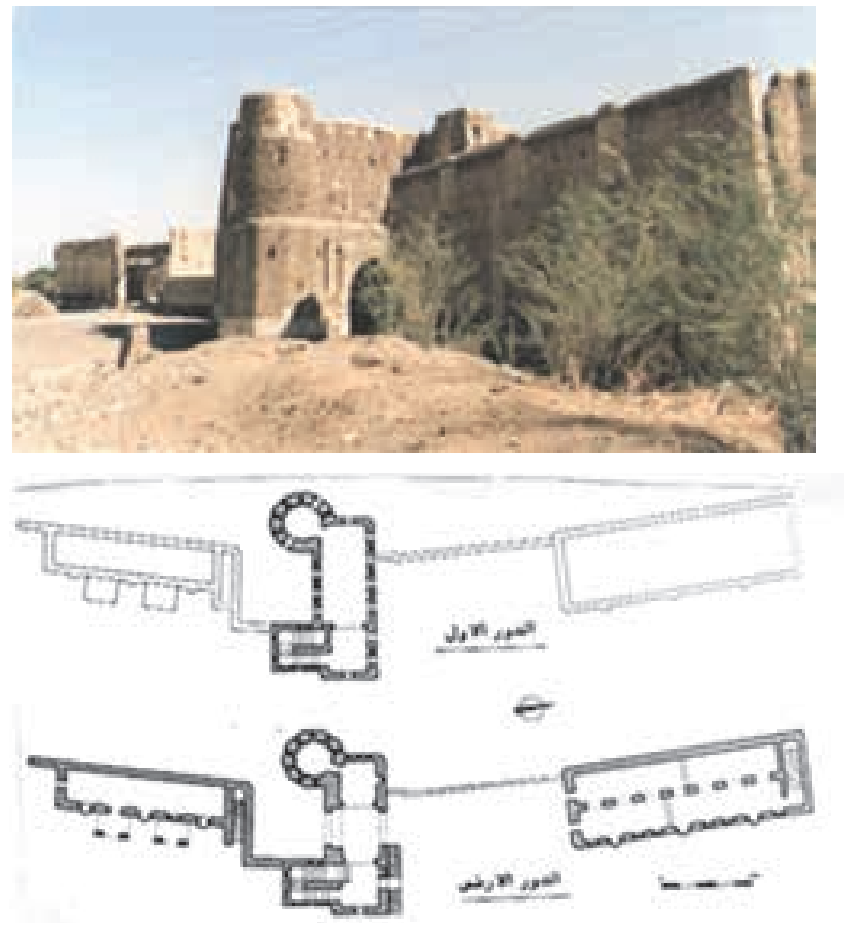

زبيد: منظر عام، ومسقط أفقي لباب النخل.

زبيد: منظر عام، ومسقط أفقي لباب القرتب.

بعد باب القرتب يمتد السور حتى باب الشبارق بطول ٨١٥م، ويحتمل أنه كان يحتوي على ٢٣ برجًا، حيث يمتد السور بعد باب القرتب باتجاه الشرق بطول ١٠٠م حتى «نوبة الصديقية»، المكونة من برج دائري الشكل، مقسم من الداخل إلى قسمين بواسطة دعامتين مربعتين تحملان ثلاثة عقود؛ بالاشتراك مع كتفين ملاصقتين للجدران. ويعد الطابق الأرضي هو الأكثر أصالة؛ إذ ما زال يحمل سمات ما يمكن أن نسميه عصر ما قبل الأسلحة البارودية؛ والمتمثل بالعصرين الأيوبي والرسولي من حيث شكل المزاغل وصغر حجمها وقلة اتساع فتحاتها؛ أما الطابق الأعلى فتبدو عليه سمات العصر العثماني المتمثلة باتساع المزاغل وشطف حوافها من الداخل والخارج؛ بحيث تسمح بزاوية إبصار وحركة أوسع للرامي بالبندقية، وتشتيت وخفض قوة صوت البندقية على سمع الرامي بها.

وبعد برج الصديقية يمتد السور نحو الشمال بخط مستقيم مع تقويس بسيط حتى يتصل بالبرج الجنوبي الشرقي للقلعة المعروف ببرج باب النصر بطول ٣٢٥م. وكان هذا الجزء من السور يحتوي – على الأرجح – على ٩ أبراج. ويمتد السور بعد برج باب النصر من القلعة باتجاه الشمال بطول ١٣٠م، إلى برج مدرسة الميلين (الإسكندرية)، ويضم ٤ أبراج؛ وهذا الجزء يمثل السور الشرقي للقلعة. وبعد برج المدرسة يمتد السور باتجاه الشمال وبشكل مستقيم حتى يتصل بالركن الجنوبي الشرقي لثكنة باب الشبارق الجنوبية، بطول ٢٥٧م تقريبًا، وكان يضم سبعة أبراج.

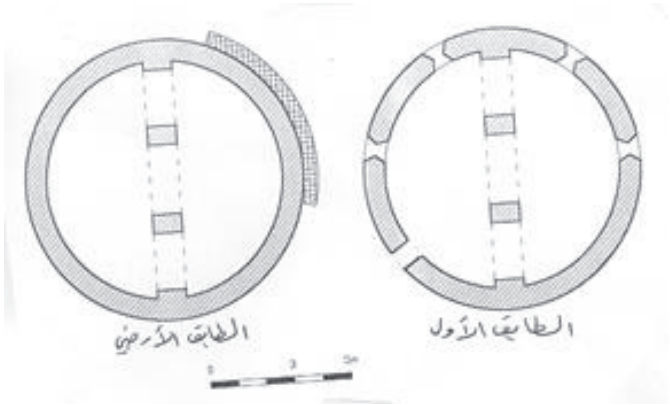

زبيد: منظر عام، ومسقط أفقي لنوبة الصديقية.

قلعة زبيد (الدار الناصري الكبير)

ذكر ابن المجاور أن ابن زياد كلف مولاه شخار بن جعفر ببناء دار خاصة بالإمارة، وكانت «مبنية بناءً وثيقًا على مقاطع الطريق، وكل من تولى زبيد سكنها». وعرفت هذه الدار منذ عهد دولة بني زياد إلى نهاية عصر الدولة الطاهرية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م بعدة أسماء، منها: «دار الإمارة»، و«دار الملك»، و«دار السلطان»، و«الدار السلطاني».

الجزء الشرقي من السور والقلعة.

منظر جوي لقلعة زبيد، عن Google Earth.

وقد جددت الدار عشرات المرات، وأضافت لها الدول المتعاقبة منشآت متنوعة، على أن أهم تجديد لها تم في عهد السلطان الرسولي الأشرف إسماعيل الثاني سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، وفي سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م، أمر ببناء قصر ملاصق للركن الجنوبي من الدار السلطاني عرف باسم «دار الذهب»، ثم وسع القصر مرة أخرى سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م، بعمارة الزيادة في الدار السلطاني أمام مدرسة الميلين وما يوازيها من الغرب.

أما التجديد الشامل للقصر، فقد تم في عهد السلطان الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل الثاني سنة ٨٠٣-٨٢٧هـ/ ١٤٠١-١٤٢٤م؛ حيث أمر سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م بهدم القصر السلطاني وما حوله من قصور الحكام والدول السابقة، ما عدا قصر والده الأشرف ومدرسة الميلين، وبنى مكانها دارًا كبيرة؛ عرفت باسم الدار الناصري نسبة إليه.

الوصف المعماري

تتكون القلعة من مساحة مستطيلة متعددة الأضلاع، أقصى اتساع لها ١٢٦م من الشمال إلى الجنوب، وأقصى عرض لها ١٥٨م من الشرق إلى الغرب، ومحيطها ٦٢٤م. محاطة بالأسوار المدعمة بالأبراج، ولها مدخل رئيسي في الجهة الشمالية، ومدخل سري في الركن الجنوبي الشرقي منها. وفي العصر الحديث استحدثت ثلاثة مداخل ثانوية؛ أحدها خاص بمبنى الحكومة، والثاني خاص بدار الضيافة، والثالث خاص بمحطة كهرباء مبنى المواصلات.

يتوسط القلعة بستان كبير عرف باسم رحبة الدار، محاط بعدة مبانٍ، منها: ثلاثة قصور تقع في الركن الشمالي الغربي هي: دار الحكومة، ودار المالية أو «دار الذهب»، ودار الضيافة، فضلًا عن إسطبل للخيل، وبئرين، ومخزنين للحبوب والسلاح، ومنظرة، ومدرسة، ومبنى للسجن، وحمام، ومخبز ومطبخ، وعدد من الثكنات المخصصة للجند. وبعض هذه المباني لم يكن جميعها من إنشاء السلطان الناصر أحمد الرسولي سنة ٨٠٣-٨٢٧هـ/ ١٤٠١-١٤٢٤م؛ وإنما أضيفت تباعًا وفي عصور مختلفة. ويحيط بالقلعة من جهة الشرق سور المدينة فضلًا عن ثلاثة أسوار في الجهات الشمالية والغربية والجنوبية.

الخندق

لم يذكر المؤرخون الذين أرخوا لدولة بني زياد قيامها ببناء خندق حول المدينة، وإنما حول دار الإمارة؛ إذ ذكر ابن المجاور أن شخار ابن جعفر حفر حوله خندقًا عظيمًا عريضًا، في حين ذكر المقحفي أن وزير بني نجاح سرور الفاتكي حفر خنادق زبيد على إثر غارات علي بن مهدي في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

كذلك ورد ذكر الخندق في عهد الدولة الرسولية سنة ٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م أكثر من مرة؛ أولاها سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م؛ حيث ذكر ابن حاتم في معرض حديثه عن استيلاء

زبيد القلعة: منظر عام، ومسقط أفقي للمدخل الرئيسي.

المظفر الرسولي على زبيد بعد مقتل والده المنصور عمر، أن والي حيس المبارز بن برطاس توجه إلى زبيد للاستيلاء عليها لصالح فخر الدين بن الحسن بن علي بن رسول، وعندما علم بقرب وصول المظفر إلى زبيد ألقى بنفسه في الخندق أمام باب الشبارق؛ وأعلن ولاءه للسلطان المظفر، وأن السلطان المظفر بعد دخوله إلى زبيد، بعد استيلائه عليها، أمر قائماز بأن يصلح الخندق الذي على باب الشبارق. وثانيتها ذكر الخزرجي أن السلطان المجاهد الرسولي أمر سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م بتجديد سور زبيد، وعمارة أبوابها وخنادقها.

من هذه الإشارات نستدل على أن الخندق كان موجودًا منذ بداية تأسيس زبيد، لكنه كان خندقًا خاصًّا بدار الإمارة؛ أما الخندق المحيط بالمدينة، فكان أول ذكر له منذ عصر الدولة النجاحية سنة ٤٣١-٥٥٤هـ/ ١٠٤٠-١١٥٩م. واستمر يؤدي دوره في عصور الدول اللاحقة، مع استمرار التجديدات له؛ إذ جدد في عهد السلطان الأفضل سنة ٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٣-١٣٧٦م. فقد ذكر الخزرجي أن السلطان: «جدد سور زبيد، وعمر خنادقها بعد أن انهدم سورها وخربت خنادقها، وأنفق في عمارة ذلك جملة مستكثرة». وجددها أيضًا السلطان الأشرف إسماعيل بن الأفضل سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، وخاصة الخندق الثاني الذي أمر بحفره بعد أن كان قد دفنه الطواشي أهيف. ومن هاتين الإشارتين نستدل على أنه كان لـزبيد خندقان، يحيط الأول بالسور الأول وهو السور الذي بناه الحسين بن سلامة سنة ٣٩٣-٤٢٦هـ/ ١٠٠٣-١٠٣٥م، ويحيط الثاني بالسور الثاني الذي بناه طغتكين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م. ويبدو أن طغتكين بعد بنائه لسور آخر يحيط بالمدينة سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، أمر بحفر خندق جديد وهو المذكور هنا باسم الخندق الثاني، وهذا يعني أن الخندق الأول كان يقع في المساحة التي تفصل بين السورين. كذلك ذكرت المصادر وجود خندق ثالث في زبيد لكنه خندق جزئي؛ وهو الذي أمر السلطان الطاهري المنصور عبد الوهاب بحفره سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م، داخل مدينة زبيد حول دار السلاح التي بناها قرب باب الشبارق.

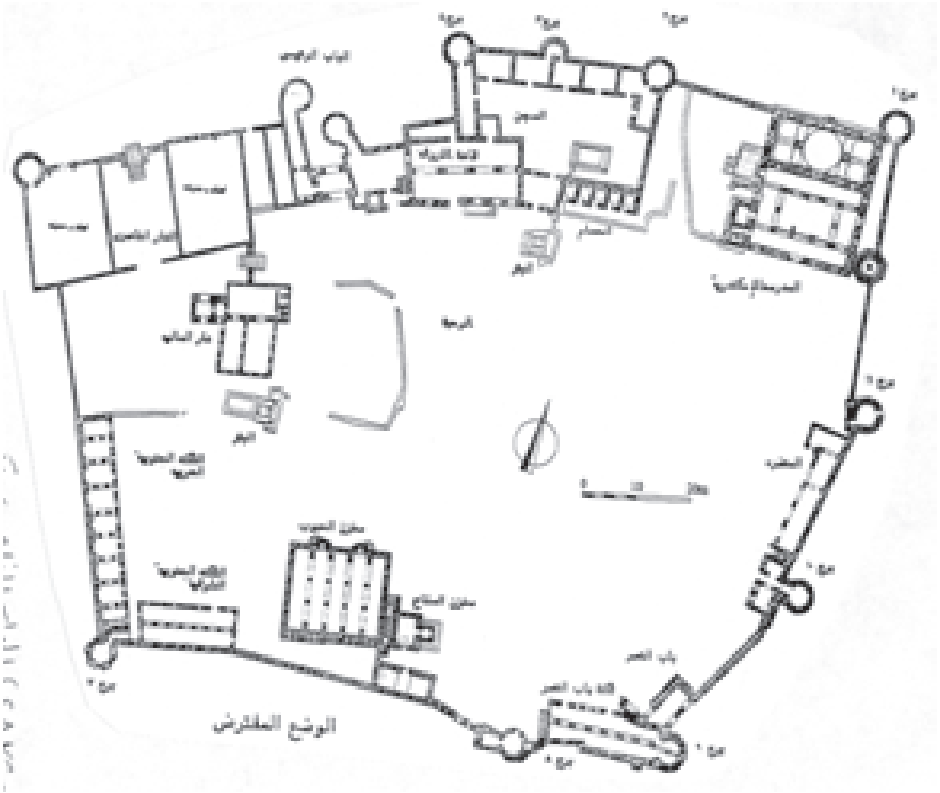

المسقط الأفقي لقلعة زبيد.

مخطط افتراضي لأسوار زبيد وخنادقها.

الوصف المعماري للخندق

يتكون الخندق المتبقي حاليًّا من حفير دائري يحيط بالمدينة بعمق يتراوح بين ٢ و٥م، واتساع يتراوح بين ٣ و١٥م، وما زالت معظم أجزاء الخندق باقية إلى اليوم؛ إذ كان لميل أرض وادي زبيد المبنية عليها المدينة نحو الغرب – أي نحو البحر – دور كبير في الحفاظ عليه؛ نظرًا لاستغلاله كمجرى لتصريف مياه الأمطار الآتية من شرق المدينة.

تعد مدينة زبيد مدينة إسلامية النشأة والتخطيط والبناء والتمصير، ولذلك كان تخطيطها ومنشآتها الدينية والمدنية والعسكرية نموذجًا للمدينة اليمنية في العصر الإسلامي. ومن خلالها أمكن التوصل إلى العديد من النتائج، من أهمها:

- من المرجح أن زبيد كانت محاطة بسور واحد منذ نشأتها سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، إلى عهد طغتكين الأيوبي الذي أضاف سورًا آخر للمدينة سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م؛ فأصبح للمدينة سوران. ونستدل على ذلك بما ذكره المقدسي (المتوفى سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) من أنه كان على زبيد حصن من الطين بأربعة أبواب، وكذلك بما ذكره يحيى بن الحسين (المتوفى سنة ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م) من أن ابن زياد أحاط زبيد بسور عندما اختطها.
- ذكر المؤرخون أن تخطيط زبيد كان دائري الشكل، ولذلك كثيرًا ما شبهوها بمدينة بغداد، إلا أن تتبع مسار السور أظهر أن تخطيط زبيد لم يكن دائري الشكل؛ وإنما هو ذو شكل بيضاوي متعرج يتسع في الجزء الشمالي ويضيق في الجزء الجنوبي. هذا بالنسبة إلى التخطيط الحالي بناءً على مواقع أبواب المدينة وبقايا السور، لكننا لا نستطيع نفي أو إثبات تخطيطها الدائري في فترة ما قبل العصر الأيوبي سنة ٥٦٩-٦٢٦هـ/ ١١٧٤-١٢٢٩م؛ لعدم وجود بقايا للسور قبل هذا العصر.
- احتواء زبيد على مداخل من النوع المنكسر الذي يعرف في العمارة الإسلامية باسم الباشورة، والمدخل المنكسر، والمدخل ذي المرفق، والمدخل ذي العطف، والمدخل المزور، والمدخل المنحني، وسمي بهذا الاسم؛ لأن تصميمه يجعل الداخل إليه ينعطف يسارًا أو يمينًا مرة واحدة أو أكثر ليصل إلى داخل المدينة أو القلعة أو غيرها من المنشآت. وهذا النوع من المداخل وجد في العمارة المصرية القديمة في عهد الأسرات ٦-١٢ الفرعونية، في كلٍّ من الكوم الأحمر، وشونة الزبيب، وأبيدوس كما يذكر كريزويل؛ ووجد أيضًا في عمارة قصر أوغاريت في بلاد الشام في الألف الثاني قبل الميلاد، وفي عمارة اليمن التي تعود إلى عصر ما قبل الإسلام بفترتيه قبل الميلاد وبعده، إذ لا يزال كثير من أسوار المدن السبئية والمعينية والحِمْيَرية والقتبانية والحضرمية قائمة حتى الآن، ومنها بوابات مدينة ميفعة، وخور روري. ومدخل الأخيرة ينكسر أربع مرات، كما وجد في العديد من المدن العراقية قبل الإسلام؛ ومنها مدينة الحضر وبعض الحصون الأشورية، ثم ظهر في العصر الإسلامي لأول مرة في مدينة بغداد.
- احتواء زبيد على طراز جديد من المداخل لم نجده قبلها في اليمن ولا في خارجها. ويتمثل في المدخل الموروب الذي يميل فيه برجا الباب كل نحو الآخر بحيث يحتضنان في الباب ويخفيانه وراءهما كما في باب الشبارق والباب الرئيسي للقلعة، الذي تأثرت به بعض مداخل مدن صنعاء وصعدة وثلا. ويرجح أن باب سهام كان من النوع نفسه، ويرجح أيضًا أن هذا الطراز يعود إلى عصر الدولة الرسولية سنة ٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م، وبالتحديد إلى تجديد السلطان الأشرف للسور سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، أو تجديد السلطان الظاهر يحيى سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م. ويعد هذا النوع من المداخل حلقة الوصل بين المدخل المباشر والمدخل المنكسر.
- احتواء زبيد على نوعين من الخنادق؛ الأول يحيط بأسوار المدينة. وكان عبارة عن خندق واحد؛ وعندما أضاف طغتكين الأيوبي سورًا آخر لـزبيد سنة ٥٩٣هـ/ ١١٧٤م، فمن المحتمل أنه أحاطه بخندق آخر، إذ تذكر مصادر تاريخ الدولة الرسولية سنة ٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م، أن زبيد في عهدها كان لها سوران وخندقان. ولأن تلك المصادر لم تنسب حفر الخندق الثاني إلى الدولة الرسولية، بل تذكر أنها أعادت حفره بعد أن دفنه الطواشي أهيف سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م، فمن المحتمل أن الخندق الثاني يعود إلى عهد طغتكين الأيوبي، وأنه تم حفره بعد بناء السور الثاني سنة ٥٩٣هـ/ ١١٧٤م، والنوع الثاني من الخنادق كان خاصًّا بالمنشآت المهمة بـزبيد، ومنها دار الملك محمد بن زياد، مؤسس الدولة الزيادية، ودار السلاح في عصر الدولة الطاهرية.
- احتواء زبيد على أبراج متنوعة يمكن تقسيمها إلى خمسة أنواع؛ هي: الأبراج نصف الدائرية؛ والأبراج ثلاثة أرباع الدائرة، ولها نموذجان: أبراج أسطوانية شبيهة بأبراج مدينة بغداد، وأبراج مخروطية؛ والأبراج المضلعة؛ والأبراج الدائرية؛ والأبراج المربعة.

- احتواء سور زبيد على نوعين من السقاطات؛ سقاطات بارزة[٢]: وهي عبارة عن شرفة تبرز عن جدار السور أو البرج أو الباب، محمولة على كوابيل تفتح بينها السقاطات في أرضية الشرفة، تظهر من الخارج على شكل نصف مسدس أو على هيئة نصف دائرة أو على شكل مستطيل، والسقاطات المخفية المائلة والعمودية كما في باب سهام وباب القلعة، والبرج الأوسط من قصر السلطان الأشرف (مبنى السجن).
- احتواء زبيد على ممشى يعلو الأسوار، يحميه من الخارج جدار ساتر، يتراوح ارتفاعه بين متر ومترين، بحيث يحجب الحراس بشكل كامل أو النصف الأسفل من أجسامهم. وتتخلله سقاطات بارزة ومزاغل يدافع الحراس من خلالها عن المدينة؛ وهو بذلك يشبه ممشى سور بغداد، وإن تميز الأخير بأنه مغطى بأقبية طولية، في حين إنه في زبيد مكشوف سماوي.
- تشابه مدينة زبيد مدينة بغداد من حيث تعدد الأسوار. فقد كان لكلٍّ منهما سوران رئيسيان، وكذلك من حيث سمك السور البالغ عشر أذرع ٤,٩٧م، ومادة البناء المكونة من الطين اللبن، وعدد الأبواب البالغة أربعة أبواب في كل مدينة، وتقسيم كلتا المدينتين إلى أربعة أقسام بواسطة أربعة شوارع تمتد فيما بين الأبواب الأربعة، وبناء المسجد وسط المدينة، واحتواء كلٍّ منهما على خندق يحيط بالمدينة؛ وإن تميزت زبيد بإضافة خندق آخر لها في العصر الأيوبي، واحتواء كلٍّ منهما على فصيل أو أكثر يفصل بين الأسوار، وإن تميز الفصيل الداخلي لمدينة زبيد باحتوائه على خندق آخر، وكذلك تقارب عدد الأبراج في المدينتين ١٠٩ في زبيد، و١١٣ في بغداد.

زبيد: منظر عام لجزء من الخندق المتبقي.

(٢) يعرفها كلٌّ من عبد الرحمن زكي وزكي حسن، باسم مشربيات، وأنها تتكون من دعائم يتقارب بعضها من بعض، وتحمل فوقها حواجز بارزة. وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منه إلى رءوس المهاجمين، وكذلك الزيت والماء المغلي.

وقف

بسم الله الرحمن الرحيم وقف وحبس وسبل وانشا العبد الفقير الى الله تعالى
حصن المسلمين ملجأ الخاصة ابو سعيد سيف الدين ركن بن عبد الله الثاني الملكي الناصري نعمه الله تعالى العظم
جميع هذه الربعة الشريفة وعدتها ثلثون جزءا على كافة المسلمين ينتفعون بذلك في القراءة والنقل
والمطالعة والدراسة وشرط الواقف المذكور ان هذه الربعة المذكورة لا تخرج من الذرية المذكورة ولا تعار ولا تخرج الا
للاصلاح وجعل النظر في ذلك لنفسه طول حياته ثم من بعده للذرية الارشد فالارشد وذريته ذرية فاذا انقرض
الذرية ولم يوجد منهم احد يكون النظر للشيخ المقيم بالتربة المذكورة يجري الحال في ذلك كذلك الى ان يرث الله الارض
ومن عليها وهو خير الوارثين فمن غير او بدل من بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه
ان الله سميع عليم ووقع اجر هذا الواقف على الله عز وجل الذي لا يضيع اجر من احسن عملا وذلك سابع شهر
من شهر جمادى الاخرة سنة ست وعشرين وسبعمائة